Coptology

الأب متى المسكين

منهج البحث والرؤيا الآبائية لواقع الكنيسة

الكنيسة امتدادٌ للتجسد

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٢

www.coptology.org

وصلتني رسالة من إنسان لم يذكر اسمه. نحن نعيش في زمان غريب. لدينا حرية كاملة في الكنيسة لدرجة أننا نكتب بأسماء مستعارة، ونظن أن لدينا رغبة عارمة في القداسة ومحبة مَن يختلف معنا، في الوقت الذي لا يتردد فيه بعض الإكليروس في استخدام أبشع ما تعرفه اللغة العربية من شتائم، وبذلك يكونوا قد فتحوا باب الشتائم على مصراعيه، يجودون علينا بالشتائم عندما لا يجد أيٌّ منهم جوابًا على سؤال، أو ردًا على مقال أو حتى تعليقًا سيئًا يُظهر وجهة نظر مختلفة، أبدًا، لا نسمع إلا ما هو تافه وحقير وشيطاني واتهامات كاذبة وتلفيق.

هكذا تحدَّى كاتب هذه الرسالة أن أذكر سطرًا واحدًا يتفق فيه الأب متى المسكين مع مؤلفات القديس هيلاريون أسقفف بواتييه (ولد حوالي ٣١٥ – اشترك في مجمع ميلان لشجب البدعة الأريوسية سنة ٣٥٥ – يُسمى أثناسيوس الغرب – لا يختلف عن أثناسيوس العظيم بابا الإسكندرية). وخطاب الأخ الذي وضع حرفين فقط B. B ربما لكي يُوهِم القارئ بأنه الأنبا بيشوي لا يستحق الرد بالمرة، إلا في نقطة واحدة، وهي ما ذكره القديس هيلاريون نفسه. وكأن الأخ B. B قد درس ما كتبه هيلاريون. ولكن من أجل المحبة وحدها، ولعل أصحاب الرؤوس الفارغة التي لا تعرف إلا ما هو قبيح، ترى جمال الإيمان المسيحي.

يقول هيلاريون:

"الكلمة الذي هو الله صار جسدًا لكي بواسطة الكلمة المتجسد ينال الجسد الاتحاد بالكلمة الذي هو الله" (كتاب الثالوث، مجلد ١٠ عامود ٣٣).

ولأن الخلاص هو "في المسيح"، وبدون المسيح، وخارج المسيح لا خلاص

بالمرة يقول هيلاريون:

"الكلمة الذي خلق كل شيء، خلق من جديد جنسنا فيه، ومحا اللعنة القديمة". (المرجع السابق، مجلد ١٠: عامود ٣٥).

وفي شرح انجيل متى يقول هيلاريون:

"كل إنسان هو في المسيح يسوع لأن الكلمة حقق الخلاص بالأداة التي أخذها وهي جسده فأكمل بذلك كل تدبير سر الخلاص". (شرح انجيل متى ٢: ٥ مجلد ٩: عامود ٩٢٧).

"ربنا ينسكب في كل جسد من أجساد المؤمنين" (المرجع السابق، ٢٨: ١ مجلد ٩: عامود ١٠٦٣).

وكما كتب الأب متى المسكين أن الرب أخذ جسد كل الخطاة أي جسد الطبيعة البشرية القابلة للموت – العبارة التي انزعج منها الأنبا شنودة وحاول التخلص منها بالتهكم واثارة الشك. يقول هيلاريون:

"لقد أخذ جسد كل واحد منّا وبواسطة هذا الجسد صار أقرب المقربين الينا" (شرح متى ١٩: ٥ مجلد ٩: عامود ١٠٢٥).

وأيضًا:

"بواسطة هذا الجسد احتوى الإنسانية كلها في ذاته وبواسطة اتحاده بكل البشر في ذاته صار (الرب) مثل مدينة وبواسطة اتحادنا بجسده صرنا نحن مواطنين هذه المدينة". (شرح متى ٤: ١٢ مجلد ٩: ٩٣٥). (راجع نفس التشبيه عند القديس أثناسيوس تجسد الكلمة فصل ٩).

هذا ما يحدث في أسرار الانضمام الى الكنيسة، ولذلك يقول هيلاريون:

"لقد صولحنا في جسده. ولذلك سبب اتحادنا بهذا الجسد الذي أخذه، نحن في المسيح. هذا هو سر الله المخفي في الله قبل كل الدهور ولكن الآن قد أُعلِن للقديسين أننا في المسيح ورثة معه متحدين به وفيه وشركاء معه

Co-participants في مواعيد الله (أفسس ٣: ٥-٦). وبسبب اتحادنا بجسده ندخل الى المسيح ... وهو عند ذلك يحول حقارتنا الى جسد مجده بشرط أن نقاوم الشهوات ونطهر أنفسنا من قذارة الخطية في سر الميلاد الجديد وأن نعيش بعد ذلك مؤمنين بأننا لا نحمل أجسادنا الخاصة بنا بل جسد المسيح" (شرح مزمور ٩١: ٩ مجلد ٩ عامود ٤٩٩).

فإذا كانت أجسادنا هي جسد المسيح، هل بعد ذلك يوجد عيب في عبارة "بيت لحم مسقط رأس البشرية المفتداة" التي لم تولد من العذراء بل من مياه المعمودية لكي تتحد بآدم الأخير يسوع المسيح؟ وها هي عبارة أقوى بكثير من عبارة الأب متى المسكين:

"يجددها المسيح لحياة جديدة، يحولنا إلى إنسانٍ جديد عندما يضعنا في جسده، لأنه هو الكنيسة بسبب سر تجسده، هو يحتوي الكنيسة كلها في كيانه" (شرح مزمور ١٢٥: ٦ مجلد ٩: عامود ٦٨٨).

وهكذا لم يفصل هيلاريون بين الكنيسة جسد المسيح والإله المتجسد يسوع المسيح، لأن التجسد هو احتواء الكل في جسد الابن:

"تأنس من العذراء وأخذ الجسد حقيقةً، فصار الجنس البشري كله متحدًا ومقدسًا فيه لكي يتم فيه تجديد الكل بواسطة جسده الذي أراد أن يأخذه لكي يسكن فينا نحن روحيًا" (الثالوث ٢: ٤، مجلد ١٠ عامود ٦٦).

وعبارة "الجنس البشري كله" لا تعني خلاص كل البشر، وإنما تعني أن كلَّ إنسانٍ يعود إلى المسيح، سيجد مكانه في المسيح، المكان الذي حُفِظَ له حسب التدبير.

يقول هيلاريون:

"لم يكن هو محتاجًا لأن يصبح إنسانًا لأنه هو خالق الإنسان، ولكن كنّا نحن المحتاجين لأنْ يتجسد الله ويسكن بيننا عندما أخذ جسده الواحد لكي

يسكن في كل ذي جسد. حقارته هي شرفنا، احتقاره هو مجدنا لأنه الله في الجسد لكي نتجدد نحن بالجسد ونصبح آلهةً" (الثالوث ٢: ٢٥، مجلد ١٠: ٦٦).

وتأله الإنسان في المسيح وبواسطة المسيح يؤكده هيلاريون:

"الإله الابن الوحيد وُلِدَ كإنسان من العذراء، لكي يرفع الإنسان فيه هو الى شرف الألوهة" (الثالوث ٩: ٣ مجلد ١٠: ٢٨٢).

"لقد وُلِد الله لكي نرتفع نحن إلى الله، لقد تألم لكي يعيدنا إلى البراءة، ومات لكي يفدينا من خطايانا، وهكذا صارت الطبيعة البشرية لكل واحد منّا في الله الذي اتَّحد بضعفنا وآلامنا" (الثالوث ٩: ٧ – مجلد ١٠: ٢٦٨).

ماذا فعل التجسد؟ يقول هيلاريون:

"بعد أن أعلن الرسول أن ملء اللاهوت يحل فيه جسديًّا، أي في المسيح، يقول بعدها مباشرةً معلِنًا سر احتوائنا إذ يقول "وأنتم مملوئون فيه"، لأنه كما أن ملء اللاهوت هو في المسيح، فإننا نحن سوف نمتلئ فيه. ولم يقل الرسول إننا سوف نمتلئ، بل نمتلئ فيه لأنه سواء كنّا قد وُلِدنا من جديد أو لم نُولَد بعد، بل سنولَد في المستقبل، فإننا بالرجاء والإيمان ننال الحياة الأبدية، لأننا الآن في جسد المسيح. ولكن في آخر الأيام سوف نمتلئ منه، وهو اليوم الذي يؤكد فيه الرسول إنه "سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١). (الثالوث ٩: ٨، مجلد ١٠: ٢٨٦).

وعن وحدة الكنيسة التي تُعطى وتُوهَب في المعمودية يقول هيلاريون:

"أنتم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح .. (غلا ٣: ٢٧-٢٨) مَن الذي يقدر أن ينسب هذه الوحدة الكائنة بيننا رغم الاختلافات الهائلة في المواطنة والحياة الاجتماعية، والنوع (sex) إلى وحدة سببها اتفاق الإرادة، وليس إلى الوحدة التي تُعطى في هذا السر، لأنه في هذه المعمودية التي تُعطى

للكل والتي فيها نلبس جميعًا المسيح الواحد؟ .. نحن واحدٌ لأننا جميعًا قد لبسنا المسيح الواحد في حقيقة هذا السر الواحد المعمودية الواحدة" (الثالوث ٨: ٨ مجلد ١٠: ٢٤٢).

الكنيسة ليست اتفاق بشر، ولا هي وحدة مصدرها الانسجام بين الناس. هكذا يكتب هيلاريون:

"هل كان الكلمة يجهل معاني الكلمات التي نطقها؟ هل هو مَن هو حقًا غير قادر على أن يقول الحق؟ وهل يمكن لمن هو الحكمة أن ينطق كلمات بلا معنى؟ أم أنه هو الذي له القدرة، صار ضعيفًا إلى حد أنه يقول شيئًا لا يقصده؟ بكل يقين لا. لقد أعلن أسرار الإنجيل بكلمات قاطعة وحقيقية. لم يكن يخاطب إيماننا فقط، بل عقولنا أيضًا عندما قال: "لكي يكون الجميع واحدًا كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك لكي يكون الجميع واحدًا فينا" (يوحنا ١٧: ٢١) أولًا: هو يصلي لأجلهم لكي "يكونوا واحدًا"، وبعد ذلك يشير إلى وحدة جوهر اللاهوت كمثالٍ لهذه الوحدة بقوله: "كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكون الجميع واحدًا فينا" وكما أن الآب في الابن والابن في الآب، فالجميع واحدٌ في الآب والابن حسب مثال هذه الوحدة" (الثالوث ٨: ١١ مجلد ١٠: ٢٤٣).

المسيح الواحد هو سر اتحادنا:

لم يكن اتحاد اللاهوت بالناسوت في رب المجد هو اتحاد إرادة فقط، بل اتحاد طبيعتين، واتحاد الآب والابن والروح القدس ليس اتحاد إرادة فقط، بل هو اتحاد الجوهر الواحد. هكذا يشرح هيلاريون الثالوث:

"الآن أريد أن اسأل بعض الأسئلة للذين يعترفون بأن الاتحاد بين الآب والابن هو اتحاد إرادتين؟ والسؤال الأول: هل المسيح فينا نحن باتحاد إرادتنا بإرادته، أم بالحقيقة لأن طبيعته فينا؟ لأن الكلمة تجسَّد حقًا، ولأننا في عشاء

الرب نأخذ جسد الكلمة، فكيف يمكن لأي إنسان أن يقول إنه ليس فينا حقًا؟ عندما تجسَّد فقد أخذ الجسد إلى الأبد، حقًا أخذه، ووحَّد حقيقة طبعنا بحقيقة طبيعته. جسده الحق ولاهوته الحق في سر جسده هو ما نتناوله. لذلك السبب نحن نصبح واحدًا، الآب في المسيح والمسيح فينا. لذلك، كلُّ مَن ينكر أن الآب حقًا في المسيح يجب عليه إما أن ينكر أنه حقًا في المسيح، أو أن المسيح ليس فيه، لأن ما يجعلنا واحدًا في الآب والابن هو حقيقة أن الآب في المسيح وأن المسيح فينا ..". (الثالوث ٨: ١٣ مجلد ١٠: ٢٤٦).

الإفخارستيا ليست مجرد اتحاد إرادي بالرب:

أحيانًا أشعر أن الآباء معنا يكتبون إجابات على أسئلة وشكوك وزوابع تهدف إلى ابتعادنا عن المسيح.

"يقول لنا المسيح كيف هو بالحقيقة فينا ونحن فيه بالشركة في جسده ودمه عندما أعلن: بعد قليل لا يراني العالم أما أنتم فسترونني، ولأنني أنا حيٌّ أنتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون أنني في الآب وأنتم فيَّ وأنا فيكم" (يوحنا ١٤: ١٩-٢٠). لو كان يقصد مجرد اتحاد إرادة، فلماذا حدَّد الدرجات التي ستصبح فيها هذه الوحدة كاملة؟ ماذا يقصد سوى أنه حقًّا في الآب كإله حقيقي ونحن فيه بالاتحاد بميلاده الجسداني، وأنه هو فينا في سر الإفخارستيا؟ هذه هي الوحدة الكاملة التي لنا في الوسيط (يسوع المسيح) هو يحتوينا في كيانه، وهو في نفس الوقت هو حالٌّ في الآب، هو يحل فينا لكي ننال الوحدة مع الآب لأنه حقًّا في الآب ونحن حقًّا فيه وهو حقًّا فينا" (الثالوث ٨: ١٥ مجلد ١٠: ٢٤٧ – ٢٤٨).

الاتحاد الإرادي لا يكفي، لأن الإرادة هي قوة الشخص العاقل الحر المريد، أي صاحب الإرادة. والاتحاد في العمل هو إعلان صريح عن دائرتين مغلقتين،

الدائرة الإلهية والدائرة الإنسانية التي لم تستفِد من التجسد ولا من القيامة ولا من سُكنى الروح القدس. ولذلك، علينا أن نقول بكل صراحة إن اتحاد الطبائع هو قاعدة الأرثوذكسية، وهو اتحادٌ لا يمحو ما هو مخلوق، بل يجدِّده ولا يحذف تمايز الخالق والمخلوق بل يؤسِّس شركة أبدية.

أليست رؤية الأب متى المسكين هي ذات رؤية هيلاريون أثناسيوس الغرب؟

دكتور جورج حبيب بباوي

+ + +